

الدكتور عبد العزيز الدسوقي

يمثل عبد العزيز الدسوقي قِلةً من ذوى الرأى الحر، فهو لا يكتب إلا عن اعتقاد جازم، ويقين سديد، لذلك تجد مقالاته النقدية والسياسية جياشة مواراة، تحسّ فيها وهج الدم، ونبض العروق، وقد تخالفه أو توافقه، ولكنك تعرف أنه صادق مخلص، لا يستملى غير ضميره، ولا يستمع إلى غير هتاف وجدانه، ومثل هذا الكاتب يعانى أزمة من أصدقائه قبل أن يعانى أزمات خصومه، لأنه حين يندفع إلى معارضته أستاذ عزيز عليه، أو صديق يثق بإنسانيته، يكابد حرجاً بينه وبين نفسه، ولكنه يحسم الصراع سريعاً بكتابة ما يعتقد، وفى يقينى أن أصدقاءه يعرفون معدنه الحر، فيقابلون اعتراضاته بالترحيب أمّا معارضوه فيحارون فى أمره، لأنهم يحبون المعارض السياسىّ الذى يلجأ إلى الدروب والمنحنيات، ويشعل ويتذاب، أمّا الشجاع الذى يقف فى الميدان ليقول ما يعتقد فهذا ما لا يطيقون دفعه، لأن فيهم خفافيش لاتحب غير الظلام.

نشأ عبد العزيز صاحب رأى وهو فى عهد الطلب، وقد فهم فى عمره الباكر أن الأدب رسالة لا حرّفة، لذلك كان أول كتاب ألّفه وهو تلميذ فى المعهد الأزهرى عن حياة البطل المفترى عليه أحمد عرابى، إذ آمن بزعامته، وعشق بطولته، وقد ساءه مالقى حينئذ من اضطهاد ظالم، حيث لم ينصفه إلاّ أفراد معدودون، فى طليعتهم الأستاذ الأديب محمود الحفيف، فرأى أن يكتب عن هذا البطل الخالد كتاباً، كان تنفيساً عن أوار حبيس فى صدره، وقد جال ببصره فى مجتمع ما قبل الثورة حين أصدر كتابه الأول، فرأى أن الزعيم أحمد حسين أقرب الزعماء إلى قلبه، فأثره بحبه، وظلّ وفيا لمبادئه، وكتب مؤلّفه الثانى فى عهد الطلب عنه

أيضاً، وقد جددت أحوال وتغيّرت ظروف، واضطر الزعيم الفدائي إلى الانزواء قانعاً ببحوثه الإسلامية، وقصصه الأدبية، وتباعد عنه من رآوا الخطوة في هذا التباعد، زلفى لمن بأيديهم الائتلاق والذبوع، ولكن عبد العزيز آثر الالتصاق الحميم بأستاذه، فكان يستحثه أن يكتب، ثم إذا ظهر مؤلفه إلى النور سارع بالحديث عنه محللاً مدققاً، وقد قرأتُ في مجلة الأديب اللبنانية مقالات تحليلية لآثار أحمد حسين كادت تكون منفردة في ميدانها، لأن المرتزقين لم يجدوا عنده نفعاً في اعتزاله، فابتعدوا عن التنويه بآثاره، وقد نهض عنهم عبد العزيز بعبء يروونه ثقيلاً، ويراه أخف من النسيم.

صلة وثيقة:

قامَ الدكتور عبد العزيز على تحرير مجلة الثقافة، فكانت أقرؤها بشغف، ثم رأيت بعد عدة سنوات من صدورها قصيدة تحت عنوان «رحيل مفاجئ» منشورة باسم شاعرة أخذ اسمها يتردد في ندوات القاهرة، فعجبت أكثر العجب، لأن القصيدة من قصائد التي نشرتها بمجلتي العربي والأديب في رثاء زوجتي الراحلة، ولم تزد الشاعرة عن أن جعلت ضمير المؤنث مذكراً، وكان مصدر العجب أن القصيدة المسروقة نُشرت في العدد السنوي الممتاز من مجلة العربي، وهو عدد يُطبع منه أكثر من مليون نسخة، فهو ذائع مشتهر، فكيف يقع هذا السطوُّ دون مبالاة، ثم جاءني اعتذار من الشاعرة تعلن فيه أسفها، وتدعوني إلى السكوت بدون تعليق حرصاً على اسمها، وكتبتُ للدكتور عبد العزيز أعلمه بما كان، فردّ على بخطاب أعترز به غاية الاعتزاز، لأنه حدثني عن نفسي كثيراً بما أجهله عنها، ويعرفه هو بذكائه، وفراسته، ثم دعاني إلى المشاركة في تحرير الثقافة، إذ لا يجوز أن تنشر أكثر مقالاتي خارج مصر، ثم لانتظر في مجلة يقوم على تحريرها! وقد استجبت لدعوته سعيداً مرتاحاً، ولكنّ الدسوقي أصّر على أن يعلن عن جريمة السرقة، إذا أن من حقّ القراء أن يعرفوا النسبة الصحيحة لأثرٍ أدبي طألَعوه، كما أنّ واجب الردع للسارقين والساقيات جزاء طبيعي، وليس في المسألة هنا قطع يد جزاء بما كسبت، نكالاً منه، ولكنه إعلان يحذر من تسوّل له

نفسه أن يعيد الكَرَّةَ غير عابئٍ بجريته! وجاءني خطاب تالٍ من الشاعرة تستعطف، وترجو أن أحولَ دون الإعلان، فكتبت ثانية أرجو الدكتور عبد العزيز أن يهمل هذه المسألة فاستجاب على ضيق، وجاءته قصائد أخرى من الشاعرة فواجهها مواجهة قاسية، وأصرَّ على أن تكون بمنأى من مجلة الثقافة، وهذا حقُّه الطبيعيّ فلا نكران.

مجلة الثقافة:

ظهرت مجلة الثقافة تحمل اسمها الدال على هدفها، فهي استمرار لمجلة سالفة قام على إصدارها فريق من أعلام الفكر الأصلاء، وهم بعد نخبة من كُتَّاب الرسالة آثروا الانفراد في مجلة خاصة بهم، والرسالة والثقافة معاً مجلتان رائدتان تؤصلان تراث العرب، وتستقبلان النافع السديد من فكر الغرب، لذلك حرص الدسوقي على أن يكون من محرري الثقافة من بقي من أعلام المجلتين مثل الأساتذة محمود شاكر، وطه الحاجري، وعبد الغنى حسن، ومحمود البدرى، وعباس خضر، وكانت رئاسته التحرير إلهاً صائباً من القدر، لأن الدعوة إلى الحرية في ظل الأصالة والمعاصرة تحتاج إلى مكافح قوى الشكيمة يعيد ما طمسه الانتهازيون على مدى عشرين عاماً أو تزيد، حين اندست الألغام الناسفة لتدمر الحياة الروحية والسمو الأدبي على أيدي من يسمون أنفسهم بالماركسيين، أو الناصريين، أو المكافحين ادعاءً فقط عن حقوق العمال والفلاحين، وقد احتلوا منابر الإذاعة والصحافة ودور النشر والطباعة ليحاربوا كل اتجاه إسلامي، وليشنوا الحرب على الدين باسم الفن الحر، داعين إلى الانحدار الخُلقي مباحين بالإلحاد والزندقة، وقد حصروا حرية الفن في تصوير العلاقات الجنسية، وتهوين الرذائل الخلقية، فإذا عرفوا قلماً مؤمناً لفقوا له التهم، ورموه بالرجعية والعمالة، ومن ورائهم مايسمى بمراكز القوى تشد الأزر، وتمهد السبيل، لأن أصحاب هذه المراكز في حاجة إلى مأجورين يزيفون، وانتهازيين يباركون!

كان العبء ثقيلاً لا يطيقه غير كاهل قوى، ولا ينهض به إنسان مجامل يحذر

المواجهة الصريحة، فهيات الأقدار عبد العزيز الدسوقي ليجابه كل هؤلاء بصراحته الرنانة، وأقول الرنّانة عن قصد، لأنه لا يعرف الهمس العاتب، أو التورية ذات الوجهين، وقد تتبع هؤلاء في كتاباتهم المنتشرة على مدى العالم العربي، فكان يعقّب على كل مقال يخالف منهج الثقافة، واصطدم بمن يحملون الأسماء المدوية ذات الطبل الناهق، ولهم مكاناتهم العلمية، ومراكزهم الجامعية، وأشياهم المغرورون، اصطدم بكل هؤلاء، وفيهم من بلغ أرذل العمر سنا بدون أن يفكر في غدّه القريب، وقد ارتاع هؤلاء إذ تعودوا على مدى ربع قرن أن يقولوا بدون معارضة، وأن يتهموا البرّاءة في أمنٍ من أن يُجَابَهُوا بالنقد الهادم! كما أنّ من براعته الفائقة أن عمل على جذب الكبار من أصدقائه السياسيين ليسهموا معه في ميدان الكفاح، فكانت المجلة تحفل بمقالات أحمد حسين، وفتحى رضوان، وحافظ محمود، وهم أصحاب رسالة قبل أن يكونوا كُتّاباً في الصحف والمجلّات! لقد جاء نصر الله والفتح فيما ناضل به الدسوقي على صفحات الثقافة! وهو جهد لن يضيع . .

أساتذة الأدب:

ذكر لى الأستاذ الدسوقي فى بعض خطابه، أنه يلّمح توافقاً كبيراً بين ما كتبه ويكتبه، حتّى إنه ليقرأ لى ما كان يود أن يقوله كثيراً، وقد أرجعت ذلك إلى اتحاد المنبع الثقافى الذى ارتشفنا منه معاً، وقد ذكر فيما كتب عن نفسه أنه تأثر فى مطلع حياته الأدبية بالدكتور طه حسين، والدكتور زكى مبارك، والأستاذ مصطفى عبد الرازق، فكانت آثارهم موضع اهتمامه إلى حد الكلف، ولعلّى أكون قريباً منه حين أعلن أنى تأثرتُ أيضاً بالدكتور زكى مبارك، والدكتور طه حسين، والأستاذ أحمد أمين، وأحمد أمين قريب من مصطفى، لأن الذى يقرأ كتاب (تمهيد فى تاريخ الفلسفة الإسلامية) للأستاذ مصطفى عبد الرازق يشعر بجوٍّ مشابه لجو فجر الإسلام، وضُحى الإسلام، مع فارق لا بد منه هو أنّ مصطفى عبد الرازق يكثر من النصوص، ويعيش فى ظلها، أما أحمد أمين فيقرؤها ثم يأخذ منها ما يشاء فيصوغه بأسلوبه تارة، وينقل النص تارة أخرى! والأستاذان عالمان أزهريان نسير

على نورهما المضيء، وقد فسح الدسوقي جانباً كبيراً من صفحات الثقافة لدراسة الأعلام الثلاثة، وكان صادقاً كل الصدق مع نفسه حين دافع عنهم بإخلاص، دافع عن الدكتور طه معارضاً ماكتبه أستاذه الكبيران أحمد حسين، ومحمود محمد شاكر، حيث ألح الأول على الحديث عن اتجاه طه حسين المستغرب في شبابه الأول، وانطلق إلى أمور ذات حساسية، رأى الدكتور الدسوقي أن أحمد حسين قد تجاوز بعض الحد في سردها، فأقر الحق في نصابه، وعقب عليه أستاذه بما يعد تقارباً والتثاماً، لا بُعداً وانفصاماً! أما الأستاذ شاكر فقد شك في قدرة طه حسين على التدوق الأدبي للنص، وأبدى من الأدلة ما أقام به وجهة نظره، ولكن الدسوقي عارضه حين قرر أن كتب طه المختلفة - إذا صرفنا النظر عن كتاب «المتنبى» - تنطق بقدرة فائقة على تحليل النص الأدبي ترتفع بطله إلى الذروة، كما أذكر في هذا المجال أنه عارض في رسالته الجامعية «تطور النقد الحديث في مصر» رأياً للأستاذ فتحى رضوان في اتجاه طه الاستشراقى، فأكد في لباقة أن الأستاذ فتحى رضوان لا يريد أن يطلق حكماً عاماً على أفكار طه حسين كلها، ولكنه يصف المرحلة الأولى من مراحل فكره، وهذا حق.

أما الدكتور زكى مبارك فقد حباه الدسوقي بمقالات جيدة تصوّر مالمقيه من العقوق والجحود، وتحلل مأساته تحليلاً يردّها إلى أسبابها الصحيحة، كما اختص كتاب «عبقريّة الشريف الرضى» بدراسة كاشفة، وواصل الحديث عنه في مناسبات مختلفة، ولم يشأ أن يترك مصطفى عبد الرزاق إذ خصّه بفصل من رسالة الدكتوراه، وما كان مصطفى عبد الرزاق نفسه يظن أنه سيحتل فصلاً نابهاً في مجال الدراسات النقدية، لولا أن فطن الدسوقي إلى كتاب «البهاء زهير»، فحلّله تحليلاً مشيراً يدل على يقظه واعية، وقال فيما قال: إن انشغال مصطفى عبد الرزاق بتدريس الفلسفة والفقه وعلم الكلام، وتوليه الوزارة ومشيخة الأزهر قد أضعف دوره المنتظر في النقد، وهذا حق، لأن كتاب «من آثار مصطفى عبد الرزاق» يحمل من بوارق النقد المبكر ما يهيئ لمستقبل منتظر، وقد حلّلت هذا الكتاب في بعض أعداد مجلة الثقافة، فراسلنى الدسوقي مباركاً، أما أسلوبه الأدبى فيسمو إلى مستوى بلغاء العصر كالزيات والبشرى.

مقالات الثقافة :

أخذتُ أتابع بحوثي الأدبية في مجلة الثقافة بدون انقطاع، وقد اعتدتُ أن أرفق كل مقال أرسله للدكتور الدسوقي بخطاب شخصي أتحدث فيه عن مقالات العدد الأخير، وأكثر ما أتجه إليه وجهة النقد، إذ أنا في هذه الرسالة الشخصية أمثل كاتب السيئات عتيداً، لا كاتب الحسنات رقيباً، وكان ارتياح الدسوقي لهذه النقدرات، وتعقيبه عليها في حديثه ومراسلاته دافعاً لمواصلاتها، ولكنها أصبحت لديه سلاحاً ذا حدين، إذ أخذ يهددني بنشرها لو توانيت عن مقالات الثقافة، ولو نشرت لأغضبت فريقاً أكثرهم في مرتبة أساتذتي، لأن الكاتب كائناً من كان لا يبدع في كل مايكتب، بل ينحدر حيناً وفقاً لحالته الخاصة حين كتابة المقال، وربما تعجل فساق الكلام بدون أناة، فوقع فيما يوجب النقد.

على أن عبد العزيز كان يدعوني لنقده شخصياً، وما كنت أسكتُ عملاً أراه موضع نقد، إلا أنني كثيراً ما أحترم وجهة النظر المخالفة فلا أشتط في المعارضة، أذكر أنني قرأتُ له في رسالته الجامعية عن حركة «أبولو» الشعرية رأياً في تجديد مطران الشعرى لم يرجح لذي، إذ ذهب إلى أنه ليس بقائد حركة التجديد في الشعر المعاصر، تلك الحركة التي تبلورت فيما يُسمى بجماعة الديوان، ثم ماويلها من الشعر المهجري، وشعر جماعة أبولو، مع أن التاريخ المؤكد يحقق سبق مطران، إذ وأصلَ النشر في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، حين كان شكري والمازني والعقاد في سن الطفولة، ثم شبَّ الثلاثة ليقروا إبداع مطران متوالياً في الصحف الدائعة، والمجلات الأدبية قبل أن يجمع الجزء الأول في ديوان خاص، فكيف لا يتأثر به نفر من أيفاع المتطلعين إلى السبق الشعرى وهم يطالعونه بدون انقطاع، قرأتُ رأى الدسوقي في سبق مطران، فلم أشأ أن أناقشه في مقال جديد، ولكنني أخبرته في محادثة عابرة بإدارة مجلة الثقافة أن لي بحثاً خاصاً بتجديد مطران نشرته منذ عشر سنوات في مجلة (الأدب) ولعلّه فطن إلى ما أريد.

متابعات :

كان الدسوقي يكتب المقال الافتتاحي بالثقافة، وضعه بحث أدبي مبسوط ينشره في وسط المجلة، ثم يختمها بباب المتابعات، حيث يترصد ما يشذ من الآراء في مجلات العالم العربي، ليعقب بتصحيح قوى، قد ترتفع حرارته فيصبح نقضاً هادماً، إذا كان المجال يتطلب الهدم المكتسح، وله في هذه الجولات فروسية ممتازة، لأنه ثبت كالتعود في مهب الأعاصير الجارفة، مع احترام مؤكد لأساتذة كبار كالـدكتور زكى نجيب محمود، والدكتور لويس عوض، والدكتور فؤاد زكريا، قد اضطر إلى مخالفتهم بالمنطق الملزم، والحجة الدامغة، وأذكر أنى حاولت أن أكون ذا تعقيبات متواضعة أكتبها بتوقيع (أبو حسام - المنصورة) ففسح لى الدكتور الدسوقي مجالاً طيباً، وكان من المصادفات أن تابعت أستاذنا محمد عبد الغنى حسن فى تحقيق مسألة عروضية تتعلق بشعره، فرد الأستاذ رداً كريماً، ولكن الأستاذ الدكتور الدسوقي رجح ما ذهبتُ إليه، فكان طريفاً من الأستاذ محمد عبد الغنى حسن أن يعقب على ذلك بقوله: ماذا أصنع وقد وقعت بين شيخى طريقتين صُوفيتين - يريد الطريقه الدسوقية، والطريقه البيومية؟! وأنا وأخى عبد العزيز لانعرف شيوخ هاتين الطريقتين، ولكن الاسم تمام.

إن لعبد العزيز محلّه الكريم لَدَى من يتبعون أحسن القول، ومن يقدرّون معارك الرأى النزيه.

الأستاذ عبد العزيز الربيعي

أحرص على قراءة واجهة مجلة «الأديب» أول ما أقرأ منها، فأنا أعلم أن صاحبها الملهم يختار لها من روائع الإيجاز اللامع، وطرائف الأدب الحى ما يقوم فى كلماته القليلة مقام مقالة رنانة لكاتب جهير، وقد وقع فى يدى عدد مارس من هذا العام، فإذا واجهته العزيزة كلمة هادفة عن المروءة من كلمات أخى عبد العزيز الربيعي! فيالله! لقد كنت أطلق عليه فيما بينى وبين نفسى فتى المروءة! وهامى ذى مجلة «الأديب» تنقل عنه ماكنت أريد أن أتحدث به مجلوا فى سريرته، أفيجوز لى بعدها أن أسكت؟! ثم مضت بى الشواغل قرابة يومين نسيت فيهما عبد العزيز وواجهة «الأديب» حتى وقع فى يدى عدد الجمعة الموافق ٢ مارس سنة ١٩٧٣ من مجلة (الجديد) اللبنانية، فتصفحته على عجل، فإذا صورة عبد العزيز الربيعي فى أعلى صحيفة منه، وقد تصمنت حديثاً واقعياً عن مروءته؛ حيث وجدت الكاتب معترفاً بفضل الرجل الأريحي عليه، إذ كان يعمل مدرساً بإحدى مدارس المملكة العربية السعودية، ثم تناولته الوشائيات الكاذبة، ففُصِّلَ من عمله، وتخير ماذا يصنع وهو فلسطينى ضاعت أرضه، ولا يدرى أين يتجه؟ فأشير عليه أن يذهب إلى عبد العزيز الربيعي، فهزته المروءة لمأساة زائره، وانطلق به إلى معالى وزير المعارف كى ينصف المظلوم فى محتته، وقد استمع المسئول الكبير حتى عرف مكان الحيف، فرد المدرس إلى مكانه، وأنهى المقال بحديث عن مروءة الربيعي التى أعرفها جيداً، أفيجوز لى بعدها أن أسكت!؟

لقد كانت كتب الأدب القديم تحفل بروائع الأريحيات الصادقة، إذ تفيض صفحاتها بأحاديث عن همامة النبلاء ومروءة الشرفاء، فتزه الأعراف للمجادة،

وتفقد النفوس للشهامة! حتى وجدت لدينا كتب خاصة تنحو هذا المنحى من مثل «المستجاد من فعلات الأجواد» و «المكافأة وحسن العقبي» وأشباههما، ولكن طريقة التأليف العصرى قد حالت دون تسجيل ما يجد من طرف الأريحيين وهمامة الفاضلين، حتى ظنّ الناس أن حديث المروءة قد فُقد! وأن الناس فى القديم غيرهم فى الحديث، فضع موضع الأسوة الحسنة التى يجب أن تكون فى ملتقى أنظار الناشئة، أفيجوز لنا - مرة ثالثة - أن نسكت!

إن المروءة لدى عبد العزيز الربيعى مروءة دين أولاً، ومروءة عروية ثانياً، ومروءة أدب ثالثاً، فهى مثلث ذو أضلاع متنافسة، ولا بد لكل ضلع من حديث.

فمروءة الدين لديه تدفعه إلى أن يقول دائماً ما يعتقد مهما قامت الحوائل وتكاثفت الصعاب، كنت أعلم حديثه فى ذلك من زملائى بالقاهرة قبل أن أفد على الرياض، ثم تلاقينا فى عاصمة السعودية، فإذا الصدق الصادق لما كنت أسمع، نكون فى المجلس الجامع فيتشقق الحديث، وتند عبارة من متحدث مرموق يعرف مكانه الرسمى أو العلمى، فيغضى السامعون فى تحفظ، ولكن عبد العزيز يرفع عقيرته بالنقد فى قوة، وقد يتعرض بعض ذوى اللجاجة إلى معارضته، فيصطدم الإعصار بإعصار، والرجل لايزيد إلا صلابة وشماساً حتى يتضاءل معارضه، إذ يتأكد أن عبد العزيز صريح أبى لا يستكين.

وقد يجمعك المجلس الحاشد إلى سماع محاضرة يلقيها مسئول لاعم، ثم يأتى دور التعقيب فتجد الإطراء الراغب من أناس تعرفهم بسيماهم قبل أن يتحدثوا، ويأتى دور عبد العزيز فلا تجد إلا الصراحة الصريحة فى إيجاز واضح، وتلك مروءة دين قبل أن تكون زلاقة حديث.

ثم تسأل عنه إذا اشتقت إليه فتهاتفه فى منزله، فتعلم أنه خارجه يسعى فى حاجة غيره، وقد تمتحنه المحرجات فى أصعب الأوقات إذ يدق الهاتف بمنزله فى منتصف الليل، فتكون الإجابة العاجلة كما سمعتها أنا منه: أبشّر، أنا إليك فى الطريق!

والمؤسف الآسف أنك تحدث الناس عن ذلك فيتألمون، وفيهم من يضيق بحديثك أكبر الضيق، وكأنك تنتقص من تحدثه حين تسمعه ثناءً يُساق إلى سواه وتلك خيمة لثيمة لا أدرى كيف تمكنت من نفوس هؤلاء الذين لا يعملون، ويؤذيهم أن يعمل الناس، ولا والله مادفعنى إلى تسجيل هذا الشناء الصادق على عبد العزيز سوى أناس ضاقوا به فى مجلس خاص! فليت شعرى كيف يصنعون إذ يجدوننى - طلباً للأسوة - أنشره على القارئىن .

هذا بعض الحديث عن مروءة الدين، إذ إن الدين الصحيح سلوك وتربية ومعاملة قبل أن يكون رسوماً وشعائر وصلوات، أما بعض الحديث عن مروءة العربية فأليك .

يعتقد الأستاذ عبد العزيز الربيعى أن العروبة شرف وكرم وإباء، وأن العربى الصريح معدن من معادن الأخلاق المثرية والعطاء السخى، والرفاء الحى، وأن التاريخ العربى فى جاهليته وإسلامه يعطى النماذج الحية بشجاعة السيف، ورجولة القول، وعفاف النفس، وكرم الفؤاد، وإذا وجد من بنى العرب من تنكب هذه الفضائل فهم أقلية لثيمة قد انحدرت عن أصول طاب مفرعها وخبث ثمرها لأسباب لا تمت إلى أصالة الجذور ببعض الصلات، لذلك تجد فتى المروءة ذا حمية عاصفة تكاد تحمله من مكانه إذا غضب، وقد رأى - ولا أدرى لماذا - أن شعر أبى الطيب يرسم الأتمودج الحى للفتى العربى فجمع فى مكتبته كل ما استطاع العثور عليه من دواوين المتنبى ذات الشروح المختلفة للعكبرى والبرقوقى واليازجى وابن جنى وعزام، ثم التفت إلى كل كتاب يعلم أنه يتحدث عن المتنبى فى القديم والحديث فأثر شراءه وتولى دراسته، ثم ضمن له أطيب مكان فى مكتبته، أما الأعداد الدورية من المجلات العربية، فى مصر والشام والعراق مما يتحدث عن أبى الطيب فى أجزاء خاصة أو فصول متتابعة، فقد وآلى التنقيب عنها قدرَ ما استطاع، وإنك لتلمح زهو المنتشى، ورضا المطمئن، وصلابة الواثق حين تجد عبد العزيز يتحدث عن أبى الطيب ويروى شعره، وأذكر أنه وجد صاحب مكتبة فى مصر يشكو إليه كساد بضاعته، ويطلب أن يبحث له عن عملاء بالسعودية، فصاح به

الرجل بديهة، سمّ مكتبتك مكتبة المتنبي، وستجد من بركة هذا الاسم مايجلب إليك القراء من شتى الأصقاع، وقد استجاب التاجر لاقتراح صاحبه، ولا أدري أتتحقق لمكتبته الرواج أم أن عبد العزيز رأى أن ينتهز الفرصة ليشيد بالمتنبي في واجهة محل يطرقه الصفوة من القراء؟

وإذا كان الشيء يذكر بالشيء فأنا أروى عن نفسى أنى تحدثت فى إذاعة الرياض ثلاث مرات عن أبى الطيب، وقد بدا لى فى شعره وسلوكه ما لايرضى عنه عبد العزيز! ولم أكن أتصور أن صاحبى سيعد ذلك هجوماً ظالماً يتحيف كل فتى عربى قبل أن يتحيف المتنبي، فظل معى ثلاث ساعات فى فندق اليمامة يجاذبنى النقد مجاذبة غاضبة، ويروى من قصائد الرجل ذات الحكّم والأمثال ما أعلم وأحفظ، ثم احتدّ فقال: إننى لم أقرأ ديوان أبى الطيب! فلم أجد غير التسليم بعد أن امتد النقاش واستطال، وإنى لأهمس فى أذن صاحبى الآن بعيداً عن مجلس النقاش، فأقول له: إننا ورثنا جميع شعراء العربية من طراز المتنبي ونظرائه، أمثال أبى تمام، والبحترى، وأبى العلاء، والشريف، فلماذا نقصر إعجابنا الخالص على فرد واحد دون سواه؟ قد يكون المتنبي شاعر العربية الأكبر عند أكثر الناس، فلماذا تحتم أن يكون كذلك عند الجميع بدون استثناء؟ إن هيام صاحبى بالعروبة قد حمّله على أن يجسد مثالها فى صورة شاعر قوى الشخصية كالمتنبي، وله أن يفعل ما يريد، ولكن ليس له أن يخضع أصدقاءه لما يشاء.

هذا بعض القول عن مروءة العروبة لدى عبد العزيز، تلك التى اتخذت مصادرها الوثيقة من التاريخ العربى ثم رأت فى شعر المتنبي ما يمثل هذه المروءة فى معرضها الخالب ومنظرها القشيب! وهى بذلك قريبة لصيقة من مروءة الأدب، ذلك الضلع الثالث من أضلاع المثلث لدى الرجل الماجد، ذى الإنتاج المتحمس، والقول المتدفع؛ إذ طالعت كثيراً مما كتبه فى جرائد السعودية اليومية ومجلات لبنان الأدبية، فوجدت مقالاته تحمل طابعه وتنادى عليه، ولو رأيتها غفلاً من إمضائه لعرفت صاحبها بقوة دفاعه، وشدة إخلاصه، وحسن تهديه! وهل كانت آثار عبد العزيز غير صرخات ناقدة فى سبيل العروبة أو ومضات خالبة فى مجالى الأدب؟!

أذكر أن مجلة «العرفان» اللبنانية قد خصصت واجهتها الأولى لفرائده النضيدة مرات عدة، فقدمت لقرائها قطعاً مركزة دقيقة من بيانه، تتجه أول ماتتجه إلى الهيام بالمجد العربى، والحذر من المتربص الأوربى مما يصلح أن يكون حداء القافلة ومنار الطريق كما أذكر أنى قرأت له بحثاً ضافياً تحليلياً عن أحمد الصافى النجفى شاعر العرب الكبير! وهو بحث أشمئنى فى الكاتب وأضحكنى منه كثيراً لا لشيء سوى أنه قال:

«يستحق الشاعر الكبير - أحمد الصافى النجفى - لقب متنبى عصره، ف شعره يقف بثقة بالغة أمام شعر أبى الطيب المتنبى يرحمه الله! فهو يقول هنا وليس قوله هذا عن نبوة «إنى والمتنبى على خط واحد»:

يُوحِداً فى الروح دارٌ ومَهْجَرٌ ويجمعنا فى الشعر فن وحَسَدٌ
أتى متنبى الشعر والروض أجردٌ وجئتُ وروض الشعر منه مُورَدٌ

ولندع رأى النجفى فى نفسه، فله أن يقارن بينه وبين المتنبى، بل له أن يرفع نفسه عنه، فمالنا الآن نقاش مع الشاعر الكبير! ولكننا نقول للأستاذ عبد العزيز: يا أخى كيف جاز لك فى أحاديثك أن تنكر مقارنة المتنبى بأبى العلاء وأبى تمام، والثلاثة قريب من قريب من قريب! ثم تقول فى حديثك عن النجفى: إن شعره يقف بثقة بالغة أمام شعر أبى الطيب يرحمه الله!! أنا لا أنكر أن الأستاذ أحمد الصافى النجفى شاعر كبير، وأنه فنان أصيل، وأن مقامه جهير فى الشعر المعاصر! ولكنى أنكر أن يقارنه عبد العزيز بأبى الطيب، ثم يرفض أن يجعل المتنبى مقارناً لأمثال أبى تمام، وأبى العلاء، والبحترى، والشريف؟ أهى مروءة الأدب قد بسطت أريحيتها الواسعة على النجفى فى ساعة صفاء حتى لفته مع المتنبى فى دثار واحد، وحرمت على غيره أن ينعم بدفء الكساء، وإنه لغال ثمين؟

وقد تأللت صداقتى مع عبد العزيز من أول مجلس تحدثنا فيه، لأننى خرجت بانطباع قوى يدفعنى إلى مودته إذ تمثل فى ذهنى فى صورة العربى الوافد من

عصور العزة الظافرة في دنيا بني أمية وبني العباس، تمثل لي في صور مغن بن زائدة، وأبي دُلف العُجلي، والأسود بن قنان، وغيرهم من ذوى الهمم الشماء، وأذكر أن صداقتنا كانت من نوع غريب بالنسبة إليّ، إذ طالما حدثني عن أمور كنتُ أريد أن أتحدث بها إليه، وطالما سبق إلى خواطر أراها مدوّنة في صدري، فأعجب لهذا التماثل الموافق، وكنت أعده شاذاً في بابه، ولكنني وجدت له نظائر في صداقات الرجال، وأقربها إلى ذهني ما ذكره أبو حيان التوحيدي في كتاب «الصداقة والصديق» عن مودة متأصلة بين أستاذه أبي سليمان المنطقي وصديقه ابن سيار القاضي.

قال أبو حيان التوحيدي لأستاذه أبي سليمان: إنني أرى بينك وبين سيار القاضي ممازجة نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومواتاة خلفية، فمن أين هذا؟ وكيف؟

فقال أبو سليمان: يا بني لقد اختلطت ثقتي به بثقته بي، فاستفدنا طمأنينة وسكوثاً، لا يرثان على الدهر، ولا يحولان بالقهر، ومع ذلك فبيننا بالطالع مشاكلة عجيبة، حتى أننا نلتقى كثيراً في الإدارات والاختيارات، والشهوات والطلبات، وربما تزاورنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل فأجدها شبيهة بأمر حدث لي في ذلك الأوان، حتى كأنها قسائم بيني وبينه، أو كأنى هو فيها، أو هو أنا، وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها، فنراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل أو بعده بقليل.

قال أبو حيان: فسألتُ أبا سليمان، هل تجد عليه في شيء أو يجد عليك في شيء؟

فقال: وجدى به في الأول قد حجبتني عن موجدتي عليه في الثاني، على أنه يكتفى فيما خالف هواي باللمحة الضئيلة، وأكتفى أنا منه أيضاً بالإشارة القليلة، وربما تعاتبنا على حال تعرض على سبيل الكناية كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون في ذلك لنا مقنع، وقل ما نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت من

ضميرى إلى شفتى، ولا نددت من صدرى إلى لفظى، وذلك للصفاء الذى
نتساهمه، والوفاء الذى نتقاسمه، والله ما يسرنى بصداقته حُمرُ النعم، وإذا كنت
أعشق الحياة لأنى بها أحيأ، فكذلك أعشق كل ما وصلَ الحياةَ بالحياة، وجنى لى
ثمرتها، وجلب إلى روحها، وخلط بى طيبها وحلاوتها»

وبعد... فأذكر أنى حين كنتُ طفلاً صغيراً بمكتب القرية المتواضع، كان معلم
المكتب، يخط على السبورة هذين البيتين لتتعلم من رسمهما الخط:

مررتُ على المروءة وهى تبكى فقلْتُ: علامَ تنتحبُ الفتاةُ؟
فقالَتْ: كيف لا أبكى وأهلى جميعاً دونَ خلقِ الله ماتوا؟!

وكان يقرؤهما متغنيا رافعاً صوته بإنشاد ساذج، فيخيل الىّ حين ذاك أن المروءة
فتاة صغيرة على سبيل الحقيقة، وأن أهلها ماتوا فبكت عليهم، فمن يدلنى الآن
على هذه الفتاة كى أذهب بها إلى قريبها الحبيب عبد العزيز الربيعى؟

النجم الذى هوى الأستاذ محمد سعيد العامودى

شعرتُ بلَوْعَةٍ أليمة حين فاجأنى نَعْيُ الأديب الكبير الأستاذ «محمد سعيد العامودى»، لأن الراحل الكريم، كان نادرَ المثال فى خُلُقهِ الرفيع، فما أعرفُ أديباً مثله اجتمعت القلوب على تقديرِ مثاليَّتِهِ الرفيعة، وسلوكه النبيل، إذ كان من الترفع عن الصغائر، واحتمال المشاكسات المغرضة، بمنزلة تُقدِّمُ النمط الأعلى لذوى الخُلُقِ الرفيع، وأصحاب الأقلام الهادفة، لا يخلون من خصوم ينصبون لهم المكاييد، ويؤولون الصريح من القول على غير نهجه السليم، وذلك بما يغيظ ويهرق، بل مما يدفع إلى الردِّ القامع، والقول القارص، ولكن سماحة الأستاذ العامودى كانت برداً وسلاماً على عارفيه، مُقرِّطين وناقدين، لذلك ضَمِنَ تقديرَ ذوى الفكر من جميع الاتجاهات، وهذا التقدير لا ينشأ عن فراغ.

وأذكرُ أنى سعدتُ بزيارة الأستاذ الكبير محمد سعيد العامودى للمنصورة، مع صديقه الشهير الأستاذ عبد القدوس الأنصارى، مؤسس مجلة المنهل، وقد أصرَّ الأديبان الكبيران على أن نجلس تحت الكافورة التى كانت المكانَ الأدبىَّ العامر بمندى الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة وكان المجلسُ عامراً بالأنصارى والعامودى، إذ تشقَّق الحديثُ عن أفكار عميقة فى السياسة والدين والأدب والاجتماع، وكادَ الليل ينتصف، والسامعون منبهرون، والأديبان السعوديان يتوليان قيادةَ الحديث، والعواطفُ المشتركة، والأمانى المتحدة، والإخلاصُ المتفق، كلُّ ذلك يجعلُ من الليلة السعيدة ليلة عيد، وأمسية مهرجان.

الصديقان الكبيران :

وقراء المنهل، بل أدباء العربية جميعاً يعرفون مدى الصداقة المثلى التي ربطت بين قلبي العامودي والأنصاري، وأذكر أنني ألمتُ بإيجاز إلى هذه العلاقة الأخوية المثالية بين الرجلين الرائدتين، فقلتُ في مقالٍ متواضع نشرته بمجلة المنهل بعدها الصادر في ذى الحجة سنة ١٣٩٨ :

« . . . وأنا أقدم الصداقة الفكرية، وأعتدها أقوى أسباب المودة، وقد شاهدت بين الأستاذين الكبيرين عبد القدوس الأنصاري ومحمد سعيد العامودي صداقةً مثاليةً، لبابها الأدب الخالص، ومحورها المثلُ العالى للخلق الكامل، وقد امتدت هذه الصداقة أكثر من أربعين عاماً، ولا تزيدُها الأيام إلا قوةً وتأثيراً، ويُن سَمات فكرية، فهو اختلافٌ مثمر نافع، لأن كلا الصديقين يجدُ في هذا الاختلاف مجالاً للنقاش الأدبي والحوار الفكري» .

فالعامودي مثل المازني، ذاتي أكثرُ منه موضوعياً، يعتمدُ على عواطفه الخاصة أكثر مما يعتمدُ على اطلاعه ويميلُ إلى التشجيع والتغاضي عمّا يؤلم منقوده، وقد يلتمسُ المعاذير لأكثر هذه الأخطاء وكذلك كان المازني .

أمّا الأنصاريُ فكالعقاد، موضوعي يستشير المراجع، ويفصلُ ما بين الآراء، وفكره مجالٌ تبريزه الأول، وإذا نقدَ فلا بد أن يكشف كلَّ المآخذ بدون نقاب، وهكذا كان العقاد، وإذا كان الاطلاعُ الدائب ديدنَ الكاتبتين المصريّين، فهو أيضاً ديدنُ الكاتبتين الحجازيين، ونأمل دائماً أن تكون صلة الأدباء جميعاً هكذا، مع اختلاف النزعات، وتنوع المشارب» .

آفاق مختلفة :

وقد كتبَ العامودي القصةَ والمقالة والقصيدة والبحث، ووالى النقد الأدبي طيلة مراحل عمره الأدبي، ولن يستطيع مقالٌ واحدٌ أن يلم بأثر الرَّاحل الكبير في هذه الميادين، ولكنني أقتصرُ على ناحية الذكريات في هذا المجال، وأذكرُ أن من

الإلهام الصادق فيما يخص الأستاذ العامودي أن قام النّادى الأدبى بجدة بحفلة تكريم كبرى للأستاذ الكبير، جمعت صفةً من أهل الفضل. فألقيت البحوث الخاصة بتحليل أدب العامودي شعراً ونثراً، وتدافع أصدقاؤه الكبار من رواد الأدب السعودي يتحدثون عن نبوغه الأدبى، وسموه الخلقى، بما شقى الصدور، ورنح الأعطاف، ثم ارتحل الأستاذ العامودي بعد قرابة شهر من هذا المهرجان الحافل، وكان الله عز وجل شاء أن يُسمع الرجل ما تنبضُ به قلوب مُحبيه قبل أن يفارقهم، فيعلم أن غرسه الطيب قد أثمر، وأن أصدقاءه وتلاميذه يعرفون أنه القدوة المثلى لذوى الترفع النبيل، والحياء الوديع! لقد كان الأستاذ الكبير عبد الفتاح أبو مدين مُلهماً حين دعا إلى هذه الندوة لتكون الشفق الجميل الذى يزركش وجه الأفق بأصباغ الفاتنة قبل الغروب! وإن كنا نعلم أن غروب ذوى الفكر، كغروب الشمس، ما تلبث أن تذهب فى المساء حتى تُشرق فى الصباح! والأديب الهادف ينتقل بجسده من عالم الأرض، وتبقى آثاره الأدبية مشرقة فى نفوس قرائه، فهى شمس تتجدد، وضيء يتوهج بدون انقطاع!

على أنى وأنا الخبير بنفس الأستاذ العامودي رحمه الله، أعرف أنه زاهد كلّ الزهد فى مواقف التكريم، ولو رجع الأمر إليه لأوصى بعدم الاحتفال، أعرف ذلك لأن مقالات كثيرة كُتبت عن أدبه، ووصلت إليه، فحال دون نشرها، ومن ذكرياتى معه أنى كتبت مقالا أدبيا عنه يُنشر فى مجلة (المنهل)، وانتظرت أن أقرأ المقال، ولكنى فوجئت بخطاب رقيق من العامودي يُعلمنى فيه أن رئيس تحرير المجلة - وهو صديقه الحميم - قد أطلعه على المقال قبل نشره، فوجده أكثر مما يستحق، لذلك استحلقتنى أن أنزل عند رغبته فى عدم النشر مع جزيل شكره، ووافر تقديره! ولم أوافق العامودي على اتجاهه، فبادرت بإرسال المقال إلى مجلة الأديب اللبنانية فنشرته فى افتتاحيتها، وكتبت للرجل أعلمه بما فعلت، فكتب إلى خطاباً طريفاً تحت عنوان «أمرى إلى الله»، وإذا أراد القارئ أن يرجع إلى هذا المقال فسيجده بعدد فبراير سنة ١٩٧٢ من مجلة الأديب.

فى رحلة الحج:

كان الأستاذ العامودى يتفضل بصحبتى فى أكثر مراحل الحج إيناساً لوحدتى، ثم يدعونى مساءً إلى منزله العامر لنلقى صفوةً من أدباء المملكة، حيث يدور الحديث عن الأدب والتاريخ، وما يلم بالعالم من أحداث، وأذكر أمسيةً لطيفة حضرها الأستاذ الكبير أحمد عبد الغفور العطار، فتحدث كثيراً عن ذكرياته بمصر، ووازن بين أدبائها الكبار، ولم يرض منافساً للعقاد من بينهم، حيث جعله أمة وحده، ثم جاء حديث التحقيق الأدبى للتراث العربى، فقال: إنه ينعى على بعض علماء الأزهر الكبار كثرة تحقيقه فى شتى فنون العربية بدون اتئاد مطمئن، فأدركت أنه يعنى أستاذنا الكبير الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد، فقلت: لعلك تعنى فلاناً، فقال: أجل!؛ قلت ياسيدى، إن لكل وجهة هو موليها، فمن المحققين من يكون هدفه إخراج نصّ صحيح للقارئ، وهو فى سبيل ذلك يعانى نقداً ذاتياً حين يوازن بين الكلمات المطموسة وما يجب أن يحل محلها، حتى يستقيم النصّ على وجه صحيح، وهذا ما يفعله الأستاذ محيى الدين فى غير كتب النحو والبلاغة والصرف، حيث يضيف شروحاً مستفيضة على هذه الكتب تُنبئ عن علم غزير، ومن المحققين من يُراجع ما عثر عليه من المخطوطات، فإذا وجدَ اختلافاً فى حرفٍ عطف أو ما يشابهه أخذ يكثر فى الهوامش بتسجيل هذا الخلاف على عقم جدواه حتى يتضخم الكتاب! وهذا سبيلٌ استشراقى أخذ الكثير منابه. . فقال الأستاذ أحمد عبد الغفور: إنه السبيل الذى لا معدى عنه! قلت: أقرأت ما أصدره الدكتور سامى الدهان حين حقق ديوان أبى فراس الحمدانى؟ إنه نشره فى ثلاثة أجزاء ضخام، وكلها ذات عناء فى ذكر ما جاء بالمخطوطات حين يتغير حرف واحد فى بيت عن مثيله فى مخطوطة أخرى، ثم جعل الثمن أضعافاً ما كان ينتظر، فلم يحز الكتاب غير نفر قليل، واضطرت دارٌ أخرى إلى إصدار الديوان فى جزء واحد ذى حجم لطيف، فلاقى الذبوع! ولعلّ وجهة أستاذنا محيى الدين هذه الوجهة التى يقصد بها النفع العميم، فقال الأستاذ أحمد: وأنا لا أقبلها!

فابتسم الأستاذ العامودي، ثم قال: أنا أرى التدقيقَ في تحقيق الكتب الدينية، لأنَّ اختلاف العبارة في حرفٍ واحد قد يتغير معه حكم شرعى، أما تحقيقُ دواوين الشعر وكتب الأدب والتاريخ فمبالغة الدكتور سامى الدهان في صنيعة بديوان أبى فراس إغراقٌ لا معنى له! والأستاذ محبى قدم كتباً كثيرة أفادَ منها الناس، كنفح الطيب، ووفيات الأعيان، ومعاهد التنصيص، ومروج الذهب، وحسن المحاضرة، وهذه وأمثالها يُغنى فيها النصّ المستقيم، وحسبُه مالاقي من صعوبة القراءة الأولى. فعجل الأستاذ العطار يقول في ابتسام: كان أستاذنا العامودي أستاذي بمدرسة الفلاح، وأنا منذُ عهد الطلب أحترم رأيه، وأراه فوق ما أبدى من الآراء، ولعلّه قد وُفقَ بين الاتجاهين على نحو حميد. وانتهى المجلس في بهجة وسرور.

سرقة فاضحة:

كان الأستاذ العامودي يسألني عن كتابٍ في مصر يتجهونَ الوجهة الإسلامية، ليسهموا في نشر بحوثهم بمجلتي التضامن الإسلامي، ورابطة العالم الإسلامي، اللتين يقوم على رئاسة تحريرهما، فدكّلتُه على نفرٍ من كرام الكاتبيين أشرفت مقالاتهم الجادة على صفحات المجلتين الأثيرتين، وكان من قدرى أن أُغرَّ في كاتب يشتغل بالمحاماة، وينشرُ مقالاتَ تشريعية بجريدة «البصير» التي تصدر بالإسكندرية، وقد حدثني أنه يريد النشرَ في مجالٍ أوسع ليخرجَ عن حيز مكانه المحدود، فطلبتُ منه بحثاً تشريعياً يناسب مجلة «التضامن»، وقرآته، فأيدته شاكراً، ثم بعثتُ به إلى الأستاذ العامودي، فعجل بنشره، ولم يكدر يرى النور حتى توالى الرسائل على المجلة تُعلن سرقة المقال جميعه من كتاب ألفه أحدُ الأساتذة بكليات الحقوق المصرية، وكتبَ إلى الأستاذ، لا ليؤاخذني حينَ زكيتُ من لا يستحق، بل ليقول إنه يعتذرُ حين يبلغني ما ارتكبه (فلان) في حقى أنا، إذ خدعنى في أمره، وما كان له أن يخبرني بذلك لولا أنه يخشى أن تستمرَّ الخديعة فأزكيه في ناحيةٍ أخرى، وإذا كان السارقُ محامياً درسَ القانون والشريعة، فإن في وسعه أن يبحث، بدون أن يسرق مادام راغباً في النشر والتأليف!

قرأتُ ما أرسله إلى الأستاذ، فشعرتُ بالخرج، وأخذتُ ألومُ نفسي أن خُدعتُ هكذا، وجعلتُ من شأني أن أناقش كلَّ من يدعى البحث فيما يقع في يدي منه، لأعلم أسرق أم صدق، ثم راسلتُ الأستاذَ معتذراً عن ذنب لم ارتكبه عامداً، وإنما جاء عن طريق الظن الحسن بالمسيء! فردَّ علي الأستاذُ بطُرْفَةٍ نادرة، رددتُ عليه بمثلها، وهما هاتان:

طرفتان نادرتان:

ذكر الأستاذ العامودي في كتابه الرقيق، أن طرفةً من نوادر السرقات، وقعتُ له شخصياً، إذ كتبَ مقالاً بمجلة قافلة الزيت عن رحلة باحث إنجليزي إلى مكة حاجاً بعد أن أسلم، ومضتُ سنواتٌ، وجاءه المقالُ بعينه من كاتب يتعلق بالأدب لينشره باسمه في مجلة التضامن، فوقَّع في حيرة سببها أنه من غير المعقول أن يُرسل إليه كاتبٌ عاقلٌ بمقالٍ كتبه رئيس التحرير نفسه، لينشر بصحيفته! لأنَّه بدهيا أولُ من سيكشف السرَّ، ثم أخذ الأستاذُ يبحثُ بعضَ الدوريات حتى عثر بمقاله المسروق في صحيفة لبنانية منسوبةً لكاتب جديد! فتأكد أن صاحبَ المقال قد نقله عن صحيفة لبنان، فهو سارقٌ ينقل عن سارق، قال الأستاذُ: وجاءني الكاتبُ يسألُ عن مقاله، فخرجتُ أن أخجله بمكتبي، وقلتُ: إن الموضوع مشتهر، يعرفه القراء ولا داعي لنشر المشهورات!

جاءتني منه هذه الطرفة، فرددتُ عليه بطرفة مناسبة، خلاصتها أن أحد ملوك الطوائف بالأندلس جلسَ يوم عيد الفطر ليسمعَ مدائح الشعراء في هذه المناسبة، وكان عدتهم عشرة شعراء، فأخذوا ينشدون القصائد في تهنئة الملك بالعيد، ولكن أحدهم اعتذر عن إلقاء قصيدته، بعد أن سجّل اسمه في القائلين، وهم بالخروج، فناداهُ صاحب الأمر، وسأله عن سرِّ امتناعه بعد أن سجّل اسمه، وإذا كانت القصيدة ضعيفة بالنسبة لما قيل فسيُجازيه متفضلاً، فقال الرجل: لقد سرقتُ القصيدة من ديوان مَسْرُقي، ولكنني فوجئتُ بسارقٍ آخر يتقدمني وينشدها بين

يديك، فلم أشأ أن أنطق، فتعجب الملك، وقال: هذا تواردُ خواطر في السرقة
الكاملة، وكانت فكاهاة اليوم.

هاتان نادرتان، وقد يكون لهما أشباه ونظائر، لأن اللصوص كثيرون.

الإمام الأكبر جاد الحق على جاد الحق

عرفت الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق من آثاره الفقهية، قبل أن يتولى منصب الإفتاء بأمد واسع، إذ كنت أقرأ له في مجلات القانون والقضاء مقالات فقهية ذات بصر نافذ، وأذكر أنه كتب في الستينيات بحثًا قانونيًا يعارض فيه حكمًا أصدرته محكمة النقض مخالفة ما أصدرته محكمة الاستئناف حين حتمت وجود الشاهدين في قضية تطليق، ورأت محكمة النقض الاكتفاء بشاهد واحد، لأمرٍ نَقَضَهَا الأستاذ جاد الحق، وكان حينئذ قاضيًا بمحكمة الأحوال الشخصية في مصر الجديدة، فأبدى آراء الحنفية في ضرورة وجود الشاهدين، وذهب إلى أن حكم النقض المتأثر بالقانون المدني لا اعتبار له أمام المذهب الحنفي الذي تأخذ به المحاكم في الأحوال الشخصية، قرأت ما كتبه القاضي الشاب مواجهًا حكم الهيئة القضائية العليا في زمن أكثر الصحف اليومية من هجومها على المحاكم الشرعية غبً الغائها الجائر، فرأيت شجاعةً واثقةً تواكب التضلع الفقهى الرصين، ومنذ قرأت هذا المقال، وأنا أجتهد في متابعة هذا القلم الأصيل حيث أجد أثره الرصين.

وحين عُين الشيخ مُفتيًا للديار المصرية، أخذتُ أتبع فتاواه الهادئة، إذ كان ينشرُ آراءه العميقة في غير صَخْبٍ أو ضجيج، وقد أُتيح لي أن أقرأ المجموعة الحافلة لهذه الفتاوى بمجلداتٍ ثلاثة أصدرتها دار الإفتاء، فقرأتُ ما أعهد من غزارة العلم، وأمانة الفتيا، وهدوء النفس، وسرني أن أجد المفتي الأكبر لا يحد بصره في مذهبٍ واحد، بل يلم بجميع المذاهب الفقهية: من حنفية، وشافعية، ومالكية، وحنبلية، وزيدية، وإمامية، وأباضية، ويعتمدُ الرأي الصحيح حيث

وجده بدون تحيز إلى مذهب معين، وهذه الأصالة في الفتوى امتداداً لمنحى الأئمة الفضلاء، من أمثال محمد عبده، وعبد المجيد سليم، ومحمود شلتوت، وهم من أعلام الفتوى في العصر الحديث.

وكان أول لقاء سعدت فيه بمحادثة الإمام الأكبر بكلية اللغة العربية بالمنصورة، حيث كنتُ عميداً لها، وحضر الإمامُ لافتتاح مصرف إسلاميٍّ مع وكيل الأزهر إذ ذاك فضيلة الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود، ورأياً معاً أن يزوراً كلية اللغة، فرحبتُ بالزائرَيْن الكبيرَيْن، وألقيتُ كلمةً قلتُ فيها: إنَّ المنصورة في حاجة إلى كلية للبنات تخصص بالدراسات الإسلامية والعربية، وإن الإمام الأكبر من خيرة أبناء الدقهلية، ويسرُّه أن ينتشر التعليم الدينى للبنات في محافظته، كما ذكرتُ أن سلفه الكبير الأستاذ مأمون الشناوى منذ ثلاثين عاماً زار المنصورة وهو شيخ الأزهر فاحتفلتُ به، وسمع من يرجوه أن يعملَ على إنشاء معهدٍ دينيٍّ بالمنصورة، فرحبتُ بالفكرة، وقال: «إنها مدينةُ أهلى وأبنائى»، وها هى ذى الفرصة تسنح لتقديم رجاءٍ مماثل للشيخ الأكبر، وهو جدير بتحقيقه، وما انتهيت من كلمتى المتواضعة، حتى نهض الإمام شاكرًا، وواعدًا بالعمل على تحقيق الرجاء، وفى غضون سنوات قليلة أصبحت كلية الدراسات العربية والإسلامية للبنات بالمنصورة حقيقة واقعة، بفضل جهودٍ متضافرة تُضاف إلى جهد الشيخ الأكبر، وفى قمبتها جُهدا لمحافظ النشيط اللواء سعد الشريينى، وأنا هنا أقرر حقيقة ولا أمدح أحدًا...

وفى ذات صباح دعانى الإمام الأكبر للقاءه، وحدثنى عمًّا يقابله الأزهر فى الصحف من هجوم ظالم يقومُ به أعداء التعليم الدينى من العلمانيين، وأنه يأمل أن ينشط كتاب الأزهر لردِّ هذه الحملات الظالمة، لأن صوت الحق لا يبدُّ أن يرتفع، ثم قدّم لى عددًا من جريدة الجمهورية، يتضمن مقالاً متجنياً على علماء الدين، وقد قرأتُ المقال فعجبت لمن نشره أكثر من عجبى لمن كتبه، لأنه يتضمن مع هجومه المنكر جهالات لا يمكن أن يقع فيها صاحب قلم يكتب عن كفاءة واقتدار، وحسبُ القارىء أن يعلم أن هذا الكاتب ذكر فى مقاله أن العلم الدينى لا يجب أن

يُؤخَذَ في معهد، وأنَّ أبا حنيفة والشافعيَّ ومالكًا و ابن حنبل لم يتعلَّموا في معهد ديني، وصاروا علماء، مع أنَّ أصغر طلاب الأزهر في المعاهد الإعدادية يعرفون أنَّ المساجد لعهد الأئمة كانت معاهد دينية تُدرَّسُ فيها أحكام الشريعة وعلوم اللسان كما كانَ نظام الأزهر في مطلع هذا القرن، وأنَّ أبا حنيفة قد درَّسَ في مسجد الكوفة، والشافعيَّ في مسجد مكة، ثم درَّسَ في مسجد الكوفة، ثم درَّسَ في مسجد الفسطاط، ومالكًا قد عكف على المسجد النبوي فلم يبرحه لغير الحج ليكونَ موضعَ تدريسه ورواية الحديث عنه، وابن حنبل قد درَّسَ في مسجد بغداد، وأملى المسندَ به، وهكذا يتصدَّرُ مثل هذا الكاتب إلى الافتيات على العلم والعلماء، ويوالى نشر مقالات لاتخرج عن دائرة الجهل الصريح، وما قرأتُ المقالَ حتى سارعتُ بالرد عليه، ونَشَرْتُ الجمهوريَّة الردَّ في مجموعته لاجمعيته، ولكنه كشف الحوار، وبين الانحدار.

وفي زيارةٍ تالية للإمام الأكبر قدَّم لي سلسلةً من الكتب التي صدرت باسم «التنوير» وهي تحملُ الإظلام، لأنَّ التنوير الحقيقي مصدره القرآن، وقد قال الله عز وجل: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٦ ﴾^(١).

أما الكتبُ التي تُهاجم الشريعة الإسلامية وتعدُّها غير صالحة للزمن المعاصر، وأما الكتبُ التي تتجنَّى على التراث العربي وتعدُّه حطامًا بائدًا فات أوانه، فليست من التنوير في شيء، وقد اخترتُ من هذه الكتب كتابين هما: «الإسلام وأصول الحكم» للأستاذ على عبد الرازق، و «مستقبل الثقافة في مصر» للدكتور طه حسين، لأقوم بالرد عليهما، وقد نشرت مجلة الأزهر رُدودي الصريحة بدون إبطاء، والحق أنَّ الذين قاموا بنشر كُتُب فات أوانها في هذه الفترة بالذات، لا يجهلون أنَّ الشعب لا يقرأ ما يأفكون، لأنه يعلمُ أن دعوى التنوير اليوم كدعوى

(١) سورة المائدة: الآية ١٥ - ١٦.

التقدمية بالأمس حين سئنا ما ادعاه الشيوعيون من تقديمتهم الزائفة، بحيث أصبح كل يسارى تقدميا، وكل مؤمن يلتزم بشريعة الله رجعيا! وطال عواء القوم حتى سقطت الشيوعية وافتضح ما زعمته من التقدم الزائف، وخجل اليساريون أن ينطقوا بالتقدمية، فلجئوا إلى كلمة التنوير، وأنا أسأل: هل الإسلام بشريته مصدر تنوير أم مصدر إظلام؟ وإذا كان القائمون بالتنوير الزائف يجهلون كل شيء عن الإسلام فلم يتحدثون عنه، ثم ألا يخجلون وقد نبذهم القراء فبارت كتبهم، وزاد التفاف الجمهور المسلم في مصر حول ذوى الأقلام المؤمنة، ودفن التنوير في لحده السحيق!

ومما يؤسف له أن الإمام الأكبر يُجابه من يُسيطرون على الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية، وأكثرهم ينشرون لأعداء الشريعة كل ما يقولون، فإذا تقدّم للردّ كاتبٌ مخلص وجد الإهمال المتعمد، بل إن مقالات الإمام الأكبر تُبتر وتُجزأ، ويكتفى بمقدماتها، فإذا أصدر الشيخ بياناً في مناسبة كالهجرة أو المولد أو رمضان، وبدأه بذكر المناسبة، ثم تطرق سريعاً إلى معالجة مسألة هامة تشغل المسلمين، فأبدى حكم الإسلام صريحاً غير مُقتَضَب، فإنّ القائمين على هذه الصحف يُغفلون ما يقوله الإمام، ويكتفون بذكر المقدمة التي يعرف مضمونها القراء سلفاً، وما هي إلا تمهيد لما يجب أن يُقال! لقد أصدر الشيخ رأيه في كل ما يعرض في الساحة المصرية جريئاً واضحاً، ولكنّ ذوى المرض والغرض أجتئوه إلى الشكوى من هذا الحيف الظالم، ولعلّ من الأسف القابض للنفس، أن تُصدر الجريدة اليومية صفحتين كبيرتين دائمتين للرياضة، وصفحةً أو صفحتين للسينما والمسرح، وصفحة للأدب لاتحمل مقالاً توجيهاً، بل تضمّ أخباراً سقيمة حول من يلوذون بالجريدة، وإن انقطعت صلّتهم الحقيقية بالأدب والأدباء! تُصدر الصحف كلّ هذا الهباء في آفاقه المتسعة الفسيحة وتضيق عن كلمة يصدرها إمام المسلمين في يوم كريم!! أليس هذا هو العبث بعينه؟!

لم ينته الإرجاف بالشريعة إلى حد، فقد نشرت جريدة العروبة خلاصةً لمحاضرة ألقاها الأستاذ جمال بدوى، جعلت عنوانها ينم عن عدم صلاحية القرآن الكريم

للتشريع فى العصر الحاضر، وكان من عناصرها أن آيات الأحكام فى القرآن قليلة، وأنها لا تكفى التواحي المتشعبة فى قوانين العصر المختلفة، وأن ما صدر عن رسول الله ﷺ لا يعد وحيًا، وأقوال الأسلاف من أئمة التشريع لا تعتبر حجة، والاعتماد على العقل هو أساس التقنين، وعبارة الاجتهاد مع النص تتطلب إعادة النظر، والمعتزلة لا يعترفون بالأحكام النصية، هذه هى العناصر المهمة، ومنها ما هو مسلم به، وما هو مشتط جائر لاصواب فيه، وقد زرت الإمام الأكبر بناء على طلبه، ليعرض على خطابات شتى من المسلمين تطلب الرد على محاضرة الأستاذ جمال بدوى، وقد استغربت أن تكون هذه الآراء صادرة عنه، لأن مؤلفاته ومقالاته تنم عن اتزان وحصافة، فكتبت ردا على هذه الأقوال، وصرحت فيه بأبى أعتقد أن كلام الأستاذ جمال بدوى قد حرّف، ونشرته الصحيفة على غير وجهه الصحيح، فالرد إذن لا يكون على الأستاذ جمال، ولكن على الذى حرّف وبدل، ثم رأيت من المجاملة الأخوية أن ينشر الرد بجريدة الوفد التى يرأس الأستاذ تحريرها، فأرسلته إليها واثقا من حرية النشر، وبخاصة وأنا من كتاب الجريدة، ولى بها أكثر من خمسين مقالا، ولكنى فوجئت بعدم النشر، فلم أجد بدا من نشر الرد بمجلة الأزهر، فصادف ارتياح الكثيرين.

وقد تقدمت إلى الإمام الأكبر بكتاب لى تحت عنوان «الأزهر بين السياسة وحرية الفكر» تحدثت فيه عن جهاد الأزهر السياسى منذ العصر العثمانى حتى الآن، ولم أطل الحديث فى هذا الاتجاه لأن غيرى قد تحدث عنه بإشباع، أما الذى اهتمت به فموقف الأزهر من حرية الفكر التى يدعى بعض الأغرار معاداة الأزهر لها، فعرضت لمواقف العلماء من آراء على عبد الرازق، وطه حسين، وتوفيق الحكيم، وغيرهم ممن خالفوا المقرر الصحيح إلى مشبهات واهية كانت فى نظرهم جديرة بالاعتبار، وأوضحت بطلان هذه الآراء مبينا رأى الأزهر الصحيح فى أخطاء كتاب الشعر الجاهلى، وكتاب الإسلام وأصول الحكم، وغيرهما مما ثار حوله الضجيج فوضح للعيان أن الأزهر يدافع عن الحقائق الأصيلة بلسان المنطق، ومن حقه أن يقول لمن أخطأ فى حق القرآن أو الشريعة أنت مخطئ، ويبيّن

أسبابَ الخطأ، وإلا فما معنى بقائه حارساً للإسلام، وشارحاً لتراث الأئمة الأعلام؟ وقد قرأ الإمام جاد الحق كتابي باعتناء، وأمر بطبعه، فتناولته الصحف بالتعليق، كلَّ حسب اتجاهه، ولكنَّ حقائقه المركزة لم تجدْ من يقف أمامها مستنداً إلى دليل..

لقد كان في طوقى أن أتحدث عن مسائل معاصرة كثيرة شاهدها عن عيان، ولمستُ للشيخ الأكبر فيها نضالاً مثابراً لا يعرف الكلل، ولكنَّ الزمن لا يُواتي كلَّ الموااتاة، فيسمح بنشر ما يُغضب قوماً يرون أنفسهم أصحاب الحق، ومن خالفهم مخطئاً غير مصيب، ولهم شيعةٌ تضرب لهم الطبول بدون تعقل، وتملك من وسائل النشر ما لا تملك، فسكوتاً حتى يعتدل الميزان.
